

الزّي الأسود بوصفه ممارسة رمزية استلابية ضد المرأة

بقلم - علي أسعد وطفة

تتعدد صيغ الاستلاب الرمزي وأدواته ضد المرأة ومكانتها في المجتمع حيث نجد أنساقا متكاملة من الفعاليات الرمزية التي تستلب المرأة من حيث نظرتها إلى ذاتها ونظرة المجتمع إليها، ونحن في هذا السياق سنقدم نموذجا رمزيا استلابيا يتعلق بالزّي الأسود الذي يشكل نمطا وجوديا للمرأة قد لا تكون إلا به في كثير من البلدان العربية.

فمن المعروف أن لباس المرأة في كثير من الأحياء والمدن والبلدان العربية ولاسيما في دول الخليج العربي غالبا ما يكون باللون الأسود بينما الرجل يرتدي اللباس الأبيض ولاسيما في فصل الصيف. وهذه الظاهرة تلفت الانتباه من حيث طبيعتها الرمزية. والسؤال هو لماذا ترتدي النساء اللون الأسود في الصيف علما بأن هذا اللون يمتص الحرارة كثيرا ويرفع درجة حرارة الجسد في بلاد شديدة الحرارة أصلا؟

وليس أبدا صعبا أن نقول بأن التقاليد هي التي تفرض ذلك، ولكن يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن التقاليد لم تكن اعتباطية يوما ما، بل هي تكتيف رمزي للعلاقات الإنسانية بين الناس وأفراد المجتمع، ومن أجرى هذا التقليد في الأصل كان يتوخى أمورا تتعلق بموقفه من المرأة ودونيتها. فالتقاليد تقوم على أساس وظائفها وأساس رمزي. والسؤال هنا لماذا تتحيز التقاليد للرجل وتظلم المرأة فتعطي الرجل فرصة ارتداء الأبيض الذي يقيه شر الحر بينما يفرض على المرأة اللون الأسود الذي يلهب الجسد بحرارته في فصل الصيف.

ومن أجل استكشاف البعد الرمزي لهذه المسألة كان علينا أن نلجأ إلى محاوررة الطالبات الجامعيات في هذا الأمر عبر نسق من التساؤلات المنهجية التي نحاول عبرها الكشف عن البعد الرمزي للزّي الأسود لدى المرأة.

ومن أجل هذه الغاية قمنا بطرح أسئلة ممنهجة تتعلق بالألوان على أربعة مجموعات طلابية مختلفة في شعب متفرقة وعلى فترة زمنية متفاوتة.

في المجموعة الأولى، سألنا الطالبات: أي الألوان هي الأفضل؟ فتنوعت الإجابات بتنوع بتنوع الألوان ولكن اللون الأسود كان نادرا ما يرتسم في سلم أفضلية الألوان لدى الطالبات.

وفي المجموعة الثانية، طرحنا سؤالين مترابطين جوهريا فكان الأول: إلى ما يرمز اللون الأسود؟ فكانت الإجابات دائما: الحزن والموت والجهل. وكان الثاني: إلى ما يرمز اللون الأبيض؟ فكانت الإجابة الطهارة النقاء النور الجمال البراءة.

وفي المجموعة الثالثة، كان سؤالنا: لماذا ترتدين ثيابا سوداء؟ وسرعان ما كانت الإجابة في هذا المقام بأن اللون الأسود هو سيد الألوان وحاكمها، أنه اللون الرسمي، إنه لون المهابة، بل هو لون الوقار والحشمة.

وبعد ذلك قمنا بطرح هذه الأسئلة الأربعة جميعها بالتسلسل على فرقة أخيرة من الطالبات. حيث بدأنا بالسؤال: ما لونكن المفضل؟ ثم إلى ما يرمز اللون الأسود؟

وبعد أن حصلنا على الإجابات التقليدية المعروفة التي ترفض اللون الأسود، سألنا الطالبات السؤال التالي: لماذا إذن ترتدين اللون الأسود؟

وهنا كانت الصدمة والارتباك حيث اصيبت الطالبات بحالة من الدهشة أو الصدمة إذ أعلنن للتو رفضهن لهذا اللون ونعتنه برمزية الحزن والجهل، وهن الآن في مواجهة حقيقة مع سؤال لم يخطر لهن ربما على بال: لماذا يرتدين اللون الأسود مع أنهن لا يفضلنه ويرين فيه رمزا للحزن والبؤس والظلام. وبعد برهة تتعالى الإجابات بأن اللون الأسود هو سيد الألوان، وبعد الإقرار بأن اللون الأسود هو سيد الألوان ولون الحشمة، وجهت للطالبات سؤالا جيدا نصه: إذا كان اللون الأسود هو سيد الألوان لماذا إذن لا يرتديه الرجال؟ ولماذا، على خلاف ذلك، يرتدون الثياب البيضاء

الناصعة؟ ومن جديد تقع الطالبات في مزيد من الحيرة والارتباك، ويشكل عليهن الأمر، وتسيطر حالة من الوجوم تنظر فيها الطالبات بعضهن إلى بعض وترتسم على وجوههن ابتسامات حائرة. ثم وجهنا سؤالاً أخيراً: نحن في بلاد حارة (دول الخليج العربي) واللون السود يجلب الحرارة ويلهب الجسد فلماذا لا تختار المرأة لونا آخر يكفيها شر الحرارة الشديدة في بلادنا؟ فكان الوجوم أخطر وأكبر؟

لقد أعلنت الطالبات أنهن يرتدين الأسود بوحى من العادات والتقاليد، ولم يخطر لهن طرح هذه السؤال على أنفسهن من قبل. وأعلنت أغلبيتهن أنهن لا يعرفن سببا موضوعيا وجيها أو شرعيا يوجب ارتداء الأزياء السوداء في أرض صحراوية حارة، وأنهن أيضا لا يعرفن لماذا يختص الرجال باللون الأبيض بينما تختص النساء باللون الأسود وكانت الإجابة المختصرة هي عاداتنا وتقاليدنا ويجب أن نحترمها ونلتزم بها.

والسؤال الذي طرحه هنا: هل من قبيل المصادفة ولد هذا التصنيف في اللون ما بين ملابس الرجال وملابس النساء؟ وهل هناك من مبررات شرعية مشروعة أو موضوعية تبرر هذا التصنيف؟ لماذا ترتدي النساء اللون السود مع انه ليس من الألوان المفضلة لديهن كما أنه يحمل طابعا رمزيا سلبيًا؟

لا يوجد أمامنا سوى افتراض واحد: إن تخصيص المرأة باللون الأسود يمثل شكلا من أشكال الاستلاب الرمزي بما يتطلبه هذا الاستلاب من عنف رمزي يُمارس على المرأة لفرض دونيتها في السلم الاجتماعي في مجتمع ذكوري، أي في مجتمع يهيمن فيه الذكور. ووفقا لهذا التصور فإن اللون الأسود يلعب طابع الترويض الرمزي للمرأة دون أن تدري بأبعاد هذا الترويض حيث أصبح هذا اللون مع الزمن لونا أنثويا تفرضه العادات والتقاليد متأصلا في الوعي ولكنه في كل الأحوال تقليد مضاد للمرأة يصنفها أدنى من الرجل: الأبيض للرجل أما الأسود للمرأة، الحرارة للمرأة أما البرودة للرجل، النور للرجل والظلام للمرأة، الطهارة للرجل بينما السواد للمرأة. طبعا هنا نستطيع أن نجد في الروابط ما بين اللون الأسود والملابس ما بين الرجل والمرأة نسقا من الرموز التي تجعل من المرأة أدنى من الرجل وهنا تتم الوظيفة الاستلابية للون الأسود والوظيفة الإنسانية للون الأبيض.